

النص القرآني في خطاب الفكر الاستشراقي

عثماني عبد المالك

كلية الآداب، جامعة بشار، الجزائر

إن توالي الرسل على العباد دليل حب الله لعباده، وإنقاذ لهم من سخطه في الدنيا والآخرة، وأن كل ما جاء به هؤلاء الرسل إنما يعزز إنسانية هذا المخلوق الذي خصه الله بالخلافة في الأرض، وإنقاذاً له من كل انحراف عن جادة الصواب مما يؤدي به إلى الهلاك في الدنيا والآخرة. قال تعالى في محكم تنزيله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»⁽¹⁾. وقال أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُ»⁽²⁾. وقال أيضاً: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»⁽³⁾.

ثم إن الله تعالى دعا عباده في رسالته إلى البشر بواسطة رسله إلى تدبر آياته، وأن دعامة الإيمان بما جاء به هؤلاء الرسل، إنما يكمن في العقل أعظم نعمة أنعم بها الله على الإنسان. قال تبارك وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»⁽⁴⁾. وقال أيضاً: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»⁽⁵⁾.

¹ الذاريات: 56.

² محمد: 12.

³ الجمعة: 5.

⁴ الزمر: 23.

⁵ النساء: 82.

لقد كان القرآن الكريم، ولا يزال، وسيظل، الكتاب السماوي المعجز الذي أنزله الله تبارك وتعالى على خير الخلق أجمعين الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، والذي أحدث نقلة نوعية، وثورة كبيرة في الأمة العربية، وفي سائر الأمم الأخرى، ذلك أن «القرآن الكريم كتاب أنزله الله تعالى على قلب رجل أُمي نشأ على الفطرة البشرية، سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الأخلاق، لم تملكه تقاليد دينية، ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة، وانقلاب كبير في العرب، فسائر الأمم يكتسح من العالم الإنساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية، الذي هبط بهذا الإنسان من أفاقه الأعلى في عالم الأرض، إلى عبادة مثله، وما هو دونه من هذه المخلوقات وما أفسد عقله، وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية والتقاليد الدينية...»⁽¹⁾

وقد وصف الله سبحانه وتعالى تأثير القرآن الكريم المنزل، فقال: «*الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ*»⁽²⁾، واعترف بروعة هذا القرآن الكريم غير العرب. يقول "جاك ريسلر": «قبل القرآن لم يكن في الجزيرة العربية أي كتاب نثر، إنه الأقدم، وهناك إجماع على اعتباره أروع كتاب في الأدب العربي. فهو مكتوب بأسلوب بديع، إذ أن القرآن أوحى لكي يتلى ويرتل بصوت مرتفع. ولا يمكن لأي ترجمة أن تحيط بدقائقه ولطائفه الموسومة بسمات الإحساس الشرقي المرفه، فلا بد من اكتناحه في نصه الأصلي لكي تقوم قوته وجمالياته، وشرف مبناه على حد سواء»⁽³⁾.

وقد تتبع المسلمون تاريخ نزول القرآن الكريم، وركزوا في هذا العمل على ثلاثة عناصر هامة: هي الزمان والمكان والأشخاص. فبعض العلماء ركزوا

¹ رضا محمد رشيد، الوحي المحمدي، دار الكتب، الجزائر، ط3، 1384 هـ، ص(145، 146).

² الزمر: 23.

³ جاك ريسلر، الحضارة العربية، ترجمة: خليل أحمد خليل - منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1993، ص38.

في تقسيم نزول القرآن الكريم على المكان «المكي ما نزل بمكة، ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة». ومن العلماء من رتب النزول على أساس الزمان: «المكي ما نزل قبل هجرة الرسول إلى المدينة والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان نزوله بمكة». ومن العلماء من تتبع النزول، وقسمه على أساس الأشخاص: «المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة».⁽¹⁾

ما يجدر بنا ذكره قبل التعرض إلى موقف المستشرقين من قضية نزول القرآن الكريم، وهو «أن المسلمين بذلوا مجهودا مشكورا في تتبع نزول القرآن الكريم من حيث الزمان، والمكان، بل إن علماءهم تتبعوا تاريخ كل آية ومتى نزلت، وفي أي شيء نزلت، وهم عندما بذلوا هذا المجهود الجبار في تحري الروايات، وضبطها كان غرضهم تتبع تطورات الدعوة الإسلامية في أدق جزئياتها، وبيانا لكل تطوراتها، ومراحلها وتعريفها للأحكام والشرائع النازلة بها».⁽²⁾

لقد تتبع المستشرقون نزول القرآن الكريم، وحاولوا ترتيبه على أساس الزمان والمكان والموضوع، فهذا المستشرق "نولدكه" وجماعة من المستشرقين الألمان قد حاولوا ترتيب القرآن الكريم ترتيبا موضوعيا، وقد ضمن كل ذلك في كتابه "تاريخ القرآن"، وفي بحوث نشرها زملاؤه في المجلات العلمية الصادرة في الفترة من سنة (ألف وتسعمائة وتسعة عشر إلى ألف وتسعمائة وثمانية وثمانين) للميلاد.⁽³⁾

والجدير بالذكر، هو أن هذا الترتيب الموضوعي الذي قام به "نولدكه" وزملاؤه، لم يكن يختلف عما قام به العلماء المسلمون قبلهم بألف عام أو يزيد،

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء 1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1988، ص 198.

² سالم الحاج ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، دار الكتب الوطنية، الجزء 1، بنغازي، ليبيا، ط 1، 2002، ص 344.

³ نقد الخطاب الاستشراقي، المرجع السابق، ص 345.

غير أن هؤلاء قد انفردوا بتقسيم نزول القرآن الكريم تقسيما موضوعيا، وذلك في ثلاثة أقسام: ففي التقسيم المكاني المتعلق بالفترة المكية، فإن الجزء الأول من التقسيم قد خصص لترتيب القرآن من حيث أسلوبه، والذي أخذ بعين الاعتبار قصر السور، ووحدته أسلوبها واختصار معانيها، وخلوها من التشريع والأحكام والقسم الثاني: انصب فيه الاهتمام على ترتيب القرآن من حيث الظروف التي قادت الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى مواجهة معارضيه. والقسم الثالث انصب فيه على ترتيب القرآن الكريم من حيث بيان العبادات والمعاملات، وتشريع الحلال والحرام، وبيان الأوامر والنواهي، والعلاقة بين المسلمين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ثم أضاف المستشرق "نولدكه" إلى هذه التقسيمات تقسيما رابعا، وهو بيان القرآن الذي نزل بالمدينة.⁽¹⁾

لقد أثبتت دراسات وبحوث أجرتها المدارس الألمانية فشل هذا النوع من التقسيمات في ترتيب نزول القرآن الكريم، وقد تبين بما لا يدع مجالا للشك فيه استحالة تصنيف القرآن الكريم خارج الدائرة المنهجية التي سلكها علماء المسلمين قبلهم بألف سنة أو يزيد، والتي تناقلتها الروايات الصحيحة، هي الطريقة الوحيدة التي تقود إلى ترتيب القرآن الكريم ترتيبا زمنيا صحيحا يفوق هذا الترتيب الموضوعي الذي قامت به المدرسة الألمانية.²

إن الترتيب الموضوعي للقرآن الكريم الذي أجرته المدرسة الألمانية، والذي طبقه نخبة من المستشرقين قد أمس بسلامة النص القرآني على أساس أن ما حملته هذا النص هو انعكاس لما أحاط بالرسول (صلى الله عليه وسلم) من ظروف خاصة وموضوعية، وأنه مرآة عاكسة لكل دقائق حياته (صلى الله عليه وسلم). أي ظروف خاصة وموضوعية - بأفراحها وأحزانها للوصول إلى نتيجة

¹ المرجع نفسه، ص 345.

² الصالح صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، 16، 1985، ص 181.

غير صحيحة، وهي تأليف الرسول (صلى الله عليه وسلم) للنص القرآني (بشرية النص القرآني).

لقد عالج المستشرق "رودنسون" النصوص القرآنية شكلا وموضوعا، وذلك في مؤلفه "محمد" إلا أنه تجاهل فيه التقسيم الذي تعارف عليه المسلمون وبعض المستشرقين بين المكي والمدني، وقد أدرج في خلال حديثه عن السيرة النبوية الحديث عن خصائص النص القرآني في المرحلتين، وفي المكانين: مرحلة ما قبل الهجرة ومرحلة ما بعد الهجرة أي في مكة، ثم في المدينة، وأهم ما ذكره قوله: «بدراسة الآيات الأولى المنزلة على محمد نكتشف ذلك التردد، وتلك الخشية والرغبة مما تنزل عليه، وسعيه لتغطية جسده، واحتمائه بزوجته وذهابه إلى "ورقة بن نوفل"، وذلك ليزيل قلقه، ويطمئن. ولأن هذه الآيات تبدو صحيحة صادقة، صادرة من شخص يعتقد مخلصا بأنه تلقاها من الغيب، ومن هنا فإن من الصعب القول: أن محمدا محتال، بل إن الحقائق العلمية والروايات والأسانيد الصارمة تجعلنا نجزم أن محمدا كان صادقا ومخلصا».⁽¹⁾

إن المستشرق "رودنسون"، وإن كان قد نفى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) الجنون، والهלוسة، وغيرها من الصفات التي ألصقها بعض المستشرقين بالرسول (صلى الله عليه وسلم) لتفسير نزول القرآن الكريم، فإنه لا يعترف بالاعتقاد الجازم والمطلق للمسلمين بألوهية النص القرآني، بل إنه ينفي الإلهية عن هذا الكتاب المنزل، ويعتبره كتابا كبقية الكتب الأخرى التي درسها.

وقد تناول المستشرق "جولدزيهر" نزول القرآن الكريم بحيث حاول في مؤلفه "العقيدة والشريعة في الإسلام" التمييز بين القرآن المكي والقرآن المدني مركزا في عمله هذا على البحث النقدي والبلاغي للقرآن الكريم. يقول: «ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد (صلى الله عليه وسلم) الصور التي أوحتها إليه حتميته الملتهبة، في شكل وهمي خيالي حاد تلقائي ذاتي، وهو

¹ Mahomet. Rodinson (M) Paris. 1968. p104.

في هذا العصر لا يسمع صلصلة سيفه، ولا يتحدث إلى محاربين أو رعايا مسالمين، بل يظهر لجموع معارضيه ومناقضيه العقيدة السائدة في نفسه عن قوة وعظمة خالق العالم، وربّه وسلطانه غير المحدود، وعن اقتراب يوم الحساب الذي يتمثله، ويرعاه في الرؤى الوحيية⁽¹⁾.

ثم يعود "جولدزيهر" في المؤلف نفسه إلى الكشف عن نواياه الحقيقية تجاه هذا القرآن وقضية نزوله، فيقول: «لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعود الكهان القدماء وضع نبوءاتهم فيه، ولو جاء في شكل آخر لما رضي عنه أي عربي يرى فيه قرآنا موحى به من الله، على أن محمدا قد أكد أن جميع ما جاء به هو من الوحي الإلهي. إلا أنه ما أعظم الفارق بين سجع الصور المكية، وسجع السور المدنية بينما نرى محمدا يسرد في الأولى رؤاه الكشفية الإلهامية "Ses Visions" في فقرات مسجوعة متقطعة وفق صوت ضربات قلبه المحموم، ونرى الوحي في الثانية (السور المدنية) يتخذ نفس الشكل السجعي لكنه مجرد من اندفاعه وقوته، حتى في الحالات التي أعاد فيها النبي طرق الموضوعات التي تناولها في السور المكية»⁽²⁾.

لقد ركز المستشرقون في حديثهم عن نزول القرآن الكريم، وكذا وصولهم إلى نتيجة، مفادها وجود تباين في الأسلوب القرآني بين المكيين مكة والمدنية، على أساس أنها في نظرهم تبرز عيوباً للقرآن الكريم المنزل، كما ضمن ذلك المستشرق "نولدكه" في مقال نشره وأسماه "عيوب الأسلوب القرآني".

وإذا ما قمنا بتحليل علمي محايد للأسلوب القرآني، فإننا نكتشف عدم صحة هذا التعليل، ذلك أن «الخطاب الموجه لأهل مكة لا يكون مطابقاً لذلك

¹ جولدزيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، ص(14، 15)، (بدون تاريخ).

² المرجع نفسه، ص15.

الخطاب الموجه لغيرهم من أهل المدينة من حيث الأسلوب والموضوع. ففي مكة يوجه الخطاب إلى قوم رفضوا الدعوة المحمدية، وعاندوا الأحكام الواردة فيها، وطعنوا في صحة الوحي الإلهي. وأنكروا نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وعارضوا الوجدانية، وتمسكوا بآلهتهم وأصنامهم ونمط حياتهم، ثم بلغ بهم الأمر إلى اضطهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه، ومحاربتهم بالسيف والقلم، ومن الطبيعي أن يكون الخطاب الموجه لهم يحمل سمات القسوة والشدة والصرامة لمقارعة حججهم وإبطال معتقداتهم. خلافاً لذلك الخطاب الذي وجه لأهل المدينة الذين آووا، ونصروا، واعتنقوا الدعوة الإسلامية بالسيف والقلم. والذي اتسم باللين واللفظ وسمحاً ينسجم وطبيعة كل قوم، وكل حادثة وظرف».⁽¹⁾

نشير إلى أن كلا من المكي والمدني قد أخذنا نصيبهما من هذه الميزات مجتمعة، وذلك لأن نزول القرآن الكريم كان مسائراً في أسلوبه للأحداث، وطبيعة المواضع، فالعديد من الآيات المكية حملت بين طياتها سمات اللين والتسامح، فهذه الآيات (اثنتان وثلاثون إلى أربع وثلاثين) من سورة مكية هي سورة فصلت ن ويدعو فيها الله إلى التسامح. قال تعالى: «*نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ* وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ* وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ*».

لقد تمسك المستشرقون بنتيجة خطيرة مفادها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تتضمن دعوته في بدايتها التوحيد، وأنها إنما برزت في الآيات المكية المتأخرة، وتأكدت بوضوح في الفترة الأخرى وهي الفترة المدنية.

ومن بين هؤلاء المستشرقين "رودنسون" والذي أبرز وأكد في مؤلفه "محمد" على هذه الشبهة مستندا في ذلك على قصتين أثبتت المصادر الإسلامية

¹ الصالح صبحي، مباحث في علوم القرآن، المرجع السابق، ص 185.

بطلان ما ذهب إليه، وقد روى القصتين كل من "الطبري" في مؤلفه "تاريخ"، وكذا بن كثير مؤلفه "البداية والنهاية"، ومما ذكرناه: أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف قد لقوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقالوا له: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فتشركنا فيما جئت به من خير، ونشركك فيما بين أيدينا من خير...

فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سورة الكافرون الآيتان (الأولى والثانية).⁽¹⁾ فرفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) المساومة جملة وتفصيلاً، وهو دليل واضح على صدق دعوته، وموضوع المساومة الذي حمله هؤلاء القوم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوضح وبجلاء عدم قبول الرسول (صلى الله عليه وسلم) إشراك الله بآلهة أخرى، ودعوته إلى توحيد الله باقية على حالها من البداية إلى النهاية.

وأما القصة الثانية التي رواها "الطبري" في مؤلفه "تاريخ"، فهي تقول أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يأمل ويتمنى وبحرص على هداية قومه إلى سبيل الرشاد، وتمنى أن يقرب الله ما بينه وبين قومه حتى حدّث بذلك نفسه وتمناه وأحبه. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.⁽²⁾ فلما انتهى إلى قوله: «أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى». ألقى الشيطان على لسانه بما كان يحدث به نفسه، ويتمنى أن يأتيه به قومه «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترضى»، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم وأعجبهم.⁽³⁾

¹ أ. الطبري - تاريخ الطبري، الجزء 2، القسم الأول، ص 1191، ب. ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء 3، ص 90.

² النجم: (1. 2. 3).

³ الطبري، تاريخ الطبري، الجزء 2، القسم الأول، ص 1192.

وقد أطلق المستشرقون على هذه الآية اسم "الآيات الشيطانية"، فالرسول (صلى الله عليه وسلم)، وليس أمرا عجيبا من محب لقومه، وهو في ذلك قد تمنى الهداية لقومه وتمنى من الله عز وجل أن يأتيه بما يقرب بينه وبينهم، وقد حدث أن ألقى الشيطان بما في نفسه، وقد تألم الرسول (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وحزن حزنا شديدا لما نطق به، وخاف من ربه خوفا عظيما، فانزل الله يطمئن رسوله (صلى الله عليه وسلم) قائلا: «* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *»⁽¹⁾. وقد أدرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما وقع، وندم ندما شديدا.⁽²⁾

لقد اتخذ المستشرقون من هذه القصة مجالا لصب اتهاماتهم على أن القرآن من تأليف محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك أنه لم يذم، ولم يقبح آلهة قومه، فجاء القرآن الكريم نافيا لكل هذه الاتهامات. قال تعالى: «* أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صِيزَىٰ * إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ *»⁽³⁾.

فنزول القرآن الكريم حمل منذ بدايته فكرة التوحيد المطلقة، وهي في نظرنا أولى أسباب النزول. قال تعالى في أول ما أنزل من القرآن الكريم: «* أَفَرَأَىٰ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *»⁽⁴⁾.

أما فيما يخص الأسلوب القرآني، فقد ذهب بعض المستشرقين في دراستهم له إلى وصفه حسب مكان النزول، ففي رأيهم الأسلوب القرآني المكّي ملئ بالذم والسب والشتم، أما الأسلوب القرآني المدني، فهو على خلاف ذلك

¹ الحج: 52.² نقد الخطاب الاستشراقي، الجزء 1، المرجع السابق، ص 370.³ النجم: (23.19).⁴ العلق: (32.1).

يتسم بالرفق والرحمة والتسامح. فإذا تفحصنا الأسلوب القرآني بمنهج علمي دقيق في قسميه المكي والمدني وجدنا بطلان هذه الاتهامات. فأما أن القرآن المكي مليء بالسب والشتم، فهذا افتراء ذلك أن القرآن الكريم نفسه قد نهى عن هذه الأوصاف. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾، وهي آية من سورة مكية هي (سورة الأنعام).

إن المستشرقين قد أساءوا في بيان مواضع الذم والتسفيه والتوبيخ، فالقرآن الكريم جاء لينقذ المشركين من شركهم، وهو بذلك يسفه أمانيتهم الضالة، ويسخر مما يعبدونه من أصنام، ويحذر المتمادين في الشرك، والذين يحاربون الله ورسوله بعدما جاءهم الحق من عذاب يوم عظيم، ولا يكون ذلك إلا بالإنذار والوعيد والتمحيص جيدا يدرك أن ذلك تزامن وفترة النزول «وحتى القرآن المدني لم يخل من هذه السمات، وبالخصوص مما كان يحكيه المنافقون واليهود من خطط وفتن تشعل لهيب الفتنة بين أفراد المجتمع في المدينة. بل إن القرآن الكريم جميعه يتضمن الوعد والوعيد والتسامح والتشديد، والأخذ والرد، والجذب والشد. وإذا تميز القرآن المكي بالشدّة والعنف، فذلك إنما مرده إلى ما تعرض إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأصحابه، والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى حتى في مهاجرهم»⁽²⁾.

إن الدارس للقرآن الكريم بمنهج علمي يدرك أن اختلاف الأسلوب القرآني المنزل بمكة عن المنزل بالمدينة شيء طبيعي لا غرابة فيه، إذا علمنا أن الدعوة الإسلامية في مرحلتها الأولى - أي في مكة - اتسمت بالصراع الشديد والحقد الدفين والكراهية لهذا الدين من قبل المشركين، وتمسك هؤلاء القوم

¹ الأنعام: 108.

² نقد الخطاب الاستشراقي، الجزء 1، المرجع السابق، ص 372.

على ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم من عبادة الأوثان، ولذلك فإن من الطبيعي أن يجيء الأسلوب القرآني في هذه المرحلة قويا عنيفا نوعا ما واعدًا متوعدا للمتجبرين، والمتعنتين منهم بالعذاب، ومسفه لآلهتهم ليدركوا أن ما هم عليه كفر وإثم كبير.

أما الأسلوب القرآني المدني، فقد اتسم بالرفق واللين. ولا غرابة في ذلك أيضا إذا عرفنا أن هذه المرحلة من الدعوة الإسلامية، قد اتسمت بالهدوء والاستقرار في الأوضاع عموما أكثر من المرحلة التي سبقتها.

غير أن هذا لا ينفي أخذ القسمين نصيهما من الخصائص المذكورة ويصف "الزرقاني" أسلوب الخطاب القرآني المتنوع، فيقول: «وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار مختلفة بين علو ونزول، واتساع وانقباض وحركة وجمود، وحضارة وبداءة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نورا وهداية ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرق جدة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضا طريا يحمل راية الإعجاز يتحدى أمم العالم في يقين وثقة قائلا في صراحة الحق وقوته وسلطان الإعجاز وصولته».⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.⁽²⁾

لقد ميز المستشرقون بين الأسلوب القرآني في مكة والأسلوب القرآني في المدينة فأروا في النوع الأول «وجود تقطع في الآيات وكذا قصر مقاطعها، وعدم التناسق في انتظام نغمتها، وانبهار وتمتمة، وانقطاع أنفاس، وأحيانا عدم استكمال لجملها. بينما يمتاز القرآن المدني بتكامل المقاطع، وتناسق نغمتها،

¹ الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، الجزء 2، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ص222، (بدون تاريخ).

² الإسراء: 88.

واختفاء اللهاث والانقطاع منها والسلامة في عرضها، والوضوح في موضوعها لأنها قيلت بعد تفكير وترو ومشاورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه والمحيطين به»⁽¹⁾.

لم يملك أصحاب هذه الآراء من المستشرقين تفسيراً علمياً لخصائص الأسلوب القرآني غير أن يربطوها بحالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ملمحين إلى بشرية النص القرآني، ولو أدركوا مفاتيح وجماليات هذه الخصائص، ولو أحاطوا بالأوضاع والظروف التي أحاطت بالدعوة الإسلامية بمنهج علمي محايد، لما وجدوا غرابة في هذا التنوع في الأسلوب الخطابي القرآني.

فالقرآن الكريم جاء مؤيداً للدعوة المحمدية إلى التوحيد، فمن الطبيعي أن يعكس النص القرآني في حالة الدعوة، ولذلك فالآيات المكية جاءت لتعكس خوف وتردد وارتباك الرسول (صلى الله عليه وسلم) في دعوة قومه إلى توحيد الله لصعوبة الموقف وهو لم يشتد عوده بعد، وهو خائف وغير واثق في تأدية رسالة ربه.

أما الآيات المدنية فقد عكست وضعاً آخر أشد استقراراً، فقد ازدادت ثقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه، وذلك لأنه أصبح قوياً، فقد آزره المسلمون في المدينة وخارجها، لذلك أصبح قادراً على التروي في التفكير، وإيجاد الحلول للعقبات التي تعترض طريقه، أو لقضايا ذات بعد نظر بعيد، فكان أن جاءت الآيات المدنية تعكس هذه الحالة، وكذا عاكسة لحالة الدعوة في مرحلتها الهادئة المستقرة.

إن القرآن الكريم في مجمله معجز في كل مستوياته البلاغية، وقد أفاض في ذلك علماء مسلمون كثر، ومحصوا كل تلك الخصائص التي أكسبت النص القرآني إعجازه، فشدت إليه القلوب ليتذوقوا حلاوته التي لا تطل، وقد تحدى

¹ نقد الخطاب الاستشراقي، الجزء 1، المرجع السابق، ص 365.

القرآن الكريم، ولا يزال لكل من يشكك في إعجازه، وسيظل كذلك. قال تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لِّمِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ *»⁽¹⁾. ويقول "الصابوني" عن هذا التحدي: «جاء التحدي في القرآن الكريم بصورة متعددة، وأساليب متنوعة، تهز كيان العرب هذا وتجرحهم إلى الميدان جراً، في أسلوب ممتع أخاذ يملك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أفئدتهم بسحره وجماله ورونقه. لقد تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا، وولوا الأدبار، مع أنهم فرسان الفصاحة وملوك البيان»⁽²⁾.

ومنه فإن النص القرآني يعلو على كل تلك المعايير التي حاول المستشرقون تطبيقها عليه، فهو حق يعلو ولا يعلى عليه، وعليه فالمنهج الذي حاول المستشرقون تطبيقه في دراساتهم القرآنية غير سليم، ذلك أنهم تناولوا النص القرآني انطلاقاً من اعتباره أنه من تأليف الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وليس على أساس أنه كتاب منزل من عند الله ولذلك فسدت النتائج بفساد مقدماتها.

كما أن علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية الأخرى كالإنجيل والتوراة، والتي لم يطلها التحريف . وهي مفقودة . هي علاقة الارتباط بوحدة المرسل والوحي، والنص القرآني إنما أنزله الله مصداقاً لها، ومهيمناً عليها. قال الله تبارك وتعالى: «* وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا

¹ البقرة: (23، 24).

² الصابوني محمد علي، التبيان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط 1، 2004، ص 94.

مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾»^(١)

إن أغلب المستشرقين في تتبعهم لمراحل الدعوة الإسلامية (الفتوحات الإسلامية)، وانتشارها في بقاع العالم بأسره يصفون هذه المراحل بـ: "الغزوات المسلحة على مختلف الجبهات". وهو اتهام باطل لطالما أطلقه العديد من المبشرين النصارى والمستشرقين، ويقصد بها أن الإسلام إنما انتشر بالسيف، وليس بالحجة والإقناع، ولا أحد ينكر تاريخ الفتوحات الإسلامية المليء بالأخلاق والآداب العالية في معاملة الأسرى، أو حتى في آداب القتال، واحترام الآخر. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا ينهاكم الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٢﴾»^(٢) وقال تبارك وتعالى أيضا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣).

وأما الأمر بقتال أهل الكتاب، فيجب أن يفهم ضمن النظرة القرآنية المتكاملة، وهي أن القتال يكون دفاعيا فقط، وبهدف منع الفتنة في الدين، فلا يضطهد الناس لأجل دينهم، ولا يكرهوا على تركه، ولا يطردوا من ديارهم. ذلك لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، "فإن انتهوا" عن الاضطهاد والقهر ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة أنفال - الآية (ثمانية/ تسعة وثلاثون).^(٤) وقال تبارك وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ

^١ المائدة: 48.

^٢ الممتحنة: (6، 8).

^٣ البقرة: 190.

^٤ محمد فاروق الزين، المسيحية والإسلام والاستشراق، دار الفكر، دمشق - سورية، ط2، 2002، ص33.

فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
 بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *»⁽¹⁾ ويقول الله تعالى مخاطباً
 رسوله (صلى الله عليه وسلم): «* وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى
 يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ *»⁽²⁾.

¹ البقرة: 256.² التوبة: 6.

الغاية:

إن أهم ما يعاب على الفكر الاستشراقي في تتبعه لمراحل الدعوة الإسلامية، هو غياب الموضوعية في كل ما قدموه من بحوث ودراسات، وكذا عدم اعتمادهم على حقائق تاريخية أو علمية، وذلك مما جعل مؤلفاتهم تثير الشكوك في مصداقيتها.

إن غرض هؤلاء المستشرقين في دراساتهم للنص القرآني، لم يكن موضوعيا، وهذه الأحكام التي خلصوا إليه تتعارض وأسس المنهج العلمي، وهذا ما يؤكد مرة أخرى مدى تعطش هذا الصنف من المستشرقين المتعصبين إلى إثبات ما لا يمكن إثباته من أحكام مسبقة راسخة وضعها الفكر الاستشراقي المتعصب، والحاقد على كمال هذه الرسالة الربانية.

وما طعون هؤلاء المستشرقين في سلامة القرآن الكريم بحجج واهية، واكتفاؤهم بتوظيف أضعف الروايات، وحتى اختلاق بعضها، إلا دليل واضح على فشل الفكر الاستشراقي في تشويه صورة القرآن الكريم الذي استحوذ بإعجازه، وسحره الإلهي بعناية ربانية عظيمة، عقول وقلوب الناس، سيبقى كذلك لأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) الرسول الأمي، هو كما أنزل قد توارثته الأجيال، لأنه رسالة ربانية تولاهها الله جلت حكمته بالحفظ والرعاية فيها صلاح الإنسانية جمعاء في الدنيا والآخرة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: العربية

1. القرآن الكريم (رواية ورش).
2. ابن هشام - السيرة النبوية - الجزء 1.
3. ابن كثير - البداية والنهاية - الجزء 3
4. أيوب حسن - الحديث في علوم القرآن والحديث - دار السلام - القاهرة - مصر - ط 1 - 2002.
5. الزركشي - البرهان في علوم القرآن - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - الجزء 1 - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - مصر - 1988.
6. الزرقاني محمد عبد العظيم - مناهل العرفان في علوم القرآن - الجزء 2 - طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه (بدون تاريخ).
7. الصابوني محمد علي - التبيان في علوم القرآن - المكتبة العصرية - بيروت - لبنان - ط 1 - 2004.
8. الصالح صبحي - مباحث في علوم القرآن - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - ط 16 - 1985.
9. الطبري - تفسير الطبري - الجزء 28.
10. رضا محمد رشيد - الوحي المحمدي - دار الكتب - الجزائر - ط 3 - 1384 هـ.
11. سالم الحاج ساسي - نقد الخطاب الاستشراقي - دار الكتب الوطنية - الجزء 2 - بنغازي - ليبيا - ط 1 - 2002.
12. الطبري - تفسير الطبري - الجزء 28.
13. محمد فاروق الزين - المسيحية والإسلام والاستشراق - دار الفكر - دمشق - سورية - ط 2 - 2002.

ثانيا: المعربة

14. جاك ريسلر . الحضارة العربية . ترجمة: خليل أحمد خليل . منشورات عويدات . بيروت . باريس . ط 1 . 1993.
15. جولدزيهر . العقيدة والشرعة في الإسلام . ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون . دار الرائد العربي . بيروت . لبنان . (بدون تاريخ).

ثالثا: الأجنبية

16. Mahomet - Rodinson (M). Paris. 1968.